



تظل الكلمات هي الوجه الأوضح والأصدق للتعبير عما نحمله من أفكار، وما نؤمن به من عقائد وقيم بكل دقة، والأكثر شفافية وإيحاء بما تحضنه جوانحنا من يقينيات تمتلئ بها نفوسنا و تستيقنها، وتبقى صدى يتrepid بكل ثبات ورتابة وإصرار، معبرا عن مدى إيماننا بمعتقداتنا واستعدادنا للتضحية من أجلها، وحماية أهدافها والصبر على تكاليفها ومتطلباتها، وبقدر ما تتأثر بكلمات الخطاب الذي نتلقاه، وبحسب ما نتوقعه من روعتها وقدرتها على الارتقاء بنا كبشر مكرمين، تكون تضحياتنا وثباتنا على هذه الكلمات.

والكلمات والحال هذه، لابد وأن تكون ثمينة وعزيزة وصادقة، وأسرة للوجدان، ومطمئنة للأفئدة الوجلة، والنفوس المضطربة، ولكي تكون أهلا للافتاء والاتباع ، لا بد لها أن تكون مقدسة في سويداء القلوب مستقرة بها ، لا تستطيع النفس الهمس حتى مجرد الهمس بتركها، والتخلي عنها، أو استغلاء أي غال في سبيل علوها وامتدادها ، وبسطها وارف ظلالها على كل مكدوود ضانك ملهوف مظلوم. وتنالق الحقيقة بكل تجلياتها، لخلاص إلى أنها لابد وأن تكون كلمات الله التي لا يأتها الباطل ولا يمر من خاللها، ولا يقدر على محوها زمن ولا طاغوت ولا متجر متكبر، ولا حتى تجرؤ على تجاهلها والاستخفاف بها نفس سوية عاقلة مدركة متفكرة.

ويحدثنا التاريخ بكل قرون الممتدة، وطيات صفحاته المتتابعة وعبره المتعاقبة، عن أناس دفعوا حياتهم وهم يستقلون بها، وبذلوا أرواحهم وهم يسترخصونها، ثمنا لهذه الكلمات المقدسة، التي ارتفت بالإنسان إلى أعلى مراتب الإنسانية، وأذاقته حلاوة العدل بعد مراة الظلم، وأخذت بيده عبر المتاهة الظلامية البشرية، إلى آفاق النور الرباني المشرق الواضح الفطري الجميل.

يحدثنا التاريخ عن امرأة، في مقاييس الجاه أمة مملوكة، وفي مقاييس الصور سوداء، وفي مقاييس الأملال والأطيان معدمة، ولكنها في مقاييس الإنسانية النقي الحقيقى إنسانة ممتلئة بإنسانيتها ، كريمة النفس متفكرة الفؤاد ، لامست كلمات الله وجدانها فاللتقطتها ، وتمسكت بها، وقد أدركت أنها طوق النجاة الذي بحثت عنه طويلا ، ليرفعها على أجنة الوحدانية المكرمة، إلى أعلى مراتب السمو والكرامة، ورددت تلك الكلمات الخالدة خلود الأبد {لا إله إلا الله} واستشعرت لذة القرب

بعد فقد وعزه الجانب بعد الذلة، وخفه التحليق في أفق الحرية بعد ثقل الأغلال ، ووُجِدَت في ترداد هذه الكلمات حنين روحها، ويرد راحتها، فاحتضنتها بكل جوارحها، وقد نسيت ما سواها من الكلمات الفارغة الجوفاء.

وَحِينَ راودَهَا الطُّفَاهُ عَنْ دِينِهَا وَرَبِّهَا وَكَلِمَاتِهِ الْمُقْدَسَةِ الْغَالِيَةِ، تَلَفَّتْ حَوْلَهَا فَإِذَا هِيَ أَمْ تَحْنُو عَلَى فَتَاهَا الَّذِي اخْتَارَ نَفْسَهُ الْاِخْتِيَارَ، وَاعْتَنَقَ ذَاتَ الدِّينِ، وَتَرَنَمَ بِذَاتِ الْكَلِمَاتِ، ثُمَّ التَّفَتَ مَرَّةً أُخْرَى لِتَرَى الزَّوْجَ الْحَانِيَ، وَقَدْ أَثْقَلَتْهُ السُّنُونُ وَتَبَعَاتُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَرْهَقَاتُ الْفَرْبَةِ، وَضَحْكَاتُ مَشَاعِرِهَا، وَسَمَّتْ رُوحَهَا، وَامْتَزَجَتْ مَشَاعِرُ الْأُمُومَةِ وَالْحُنُوِّ، وَالْمَحْبَةِ وَالْوَدِ، بِمَشَاعِرِ الْفَخْرِ وَالرَّضْيِ، وَالْخُوفِ الْطَّبَيِّعِيِّ الْأُمُومِيِّ، فَطَافَتْ بِهَا طَائِفَاتٍ شَتَّىَ، وَوُجِدَتْ نَفْسُهَا تَقَارِنَ بَيْنَ الْأُمُومَةِ وَخَالِقَهَا، وَبَيْنَ الْعَاطِفَةِ وَمَسْخِرَهَا، وَبَيْنَ الْمُوْدَةِ وَمَلْقِيَّهَا فِي الْفَلُوْبِ فَلَا تَرَى فِيهَا سَوَاهَ فَتَسْكُنُ إِلَيْهِ رُوحَهَا وَتَنْحَازُ إِلَيْهِ تَعَابِرُهَا فَتَنْطَلِقُ كَلِمَاتُ التَّوْحِيدِ رَدًا قَاطِعًا وَتَبْحَثُ فِي مَوَاثِيقِ رِبَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَإِاصْرِهَا، وَتَقَارِنُهَا بِنُورِ الْإِسْلَامِ وَعَدْلِهِ، بَيْنَ تَلْكَ كَلِمَاتِ الْخَرْقَاءِ الَّتِي تَمْجِدُ حِجَارَةَ وَجَمَادَاتَ وَكُلَّ فَانِ مَهِينِ، وَبَيْنَ هَذِهِ الْعَبَارَةِ الرَّحِيبَةِ وَالصَّادِقَةِ الْمَهِيبَةِ، الْبَاعِثَةُ لِلْحَيَاةِ فِي أَرْوَاحِ مَاتَتْ فِيهَا كُلُّ إِشْرَاقَاتِ الْحَيَاةِ، فَلَا تَأْخُذُهَا مَسِيرَةُ الْمَقْارِنَةِ طَوِيلًا، فَالْاِخْتِيَارُ وَاضْحَى لِكُلِّ ذِي لَبِ لَبِيبِهِ، وَكَلِمَاتُ الْعَظِيمَةِ أَغْلَى مِنْ كُلِّ مَا تَمْلِكُ وَمِنْ تَحْبُّ، وَأَسْمَى مِنْ كُلِّ الْمَشَاعِرِ وَالْأَحَاسِيسِ مَا تَحْسِهُ وَتَلْمِسُهُ وَتَعِيشُ فِي ظَلِّهِ، مَنْذَ آمَنَتْ بِأَنَّهُ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ، فَاخْتَارَتِ الْمَوْتَ الْكَرِيمَ عَلَى الْحَيَاةِ الْمَجْرِيَّةِ مِنْ رُوحِ الْحَيَاةِ، مَوْقِنَةً بِأَنَّهُ السَّبِيلُ إِلَى الْكَرَامَةِ وَالْخَلْوَةِ، فَخَلَدَتْ {سَمِيَّةَ} ذَكْرًا وَبَطْوَلَةً وَمَثْلًا وَفَازَتْ بِسَبْقِ الْاِسْتِشَاهَدِ.

ويحدثنا التاريخ عن رجل عالم أديب وصلت نفسه إلى أعلى أعماق الكلمات الربانية ، وتشربتها روحه الطيبة، وتمثلها سلوكاً وفكراً، فحورب لأجلها وسجن وحكم عليه بالموت ظلماً وعدواناً وفرعنة، حتى إذا آن أوان الاستشهاد من عليه الطاغوت بمن يذكره وبالسخرية أن يذكره بالكلمات التي يحكم عليه بالموت لأجلها، فبلغت إلى الشيخ المعمم وقد طلب منه النطق بالشهادتين، يلتفت إليه بكل اطمئنان المؤمن، وأدب الأديب، وسكونه من يحس بأنه يقف على عتبات الواحد القهار العادل، وبكل ثقة الراضي برضى ربه قائلاً: {وَهُلْ تَرَانِي جَئْتُ إِلَيْهَا إِلَّا مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ} فخلد سيد قطب مثلاً وعلماً وأدباً وثباتاً وشجاعةً وصداقاً وخطاب الفرعون واستنزل على نفسه اللعنات وأفضى إلى ما قدم.

ويحدثنا التاريخ وآه من حديث التاريخ حين تجنب به الريح إلى منازل العبر والعظات بحدثنا عن جنود الكلمات الزائفة كما يحدثنا عن جنود الكلمات الصادقة فللحقد جنده وللباطل جنده والعاقبة للحق وأهله يحدثنا التاريخ عن فرعون حين أصر على كلماته الخاسرة وصدق كذبته التي ألقاها في روعه شيطان الكبر وطاغوت الجاه {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} فدارت عليه كأس السنن فشربها {فَأَخْذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى}

ويحدثنا التاريخ عن أمة عاشت في ظل كذبة كبرى ، مبنية على كلمات مكذوبة ، فأحرقت البلاد وأهلكت العباد ، واستباحت بيوت الله وحرماته، وداست القيم وسرقت الأوطان، وزورت التاريخ ، وعلت في الأرض بغير الحق، وأسرفت في ظلمها وعلوها ، ولم تلق بالاً لتلك الكلمات المقدسة المتوعدة الصادقة الربانية {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوَّا وَجْهُوكُمْ} كل هذا وهي تدعى {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحْبَاؤُهُ} وتظل الكلمات مداراً يسير في مساره ، يعبر فيه أهل الصدق عن صدقهم، ويتلعب فيه شيطان الكذب بأوليائه ، وتبقى النفوس الرحيبة المطمئنة الرجاء إلى ربها، تدفع راضية مرضية ، ثمن ولاءها لكمات الله الخالدة، لأنها تستحق التضحية وكيف لا؟ وهي النبع الفياض الدائم العصي على النفاذ ، الماضي دون تراجع ولا تغيير ولا تبدل.

وكيف يتبدل العدل وبم؟

وكيف تنفذ الرحمة والرزق والعطاء ولم؟ {قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مداداً}

فتبقى الكلمات الله هي الكلمات التي من أجلها تقبل الأرواح على الموت وهي مستبشرة بصدق الوعيد ورحمة الوعاد وروعة اللقاء

اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

المصادر: